الفسق والنفاق

تأليف

د/ عبد العزيز بن محمد العبد اللطيف

مدار الوطن للنشر

الطبعة الأولى
١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

مدار الوطن للنشر - الرياض

هاتف : ٤٧٩٢٠٤٢ (٥ خطوط) فاكس : ٤٧٢٣٩٤١- ص . ب : ٣٣١٠

- البريد الالكتروني : pop@dar-alwatan.com
- موقعنا على الانترنت : www.madar-alwatan.com

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أولاً: الفسق

مقدمة

إنَّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضلّ له، ومن يُضلِلْ فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد:

فتظهر أهمية دراسة موضوع «الفسق» عند ما نعلم أن أول نزاع ظهر في الإسلام كان في مسألة الفاسق الملّي[1]، فقد أحدث الخوارج القول بتكفير عُصاة الموحّدين وتخليدهم في النار، وزعمت المرجئة أن أولئك العُصاة كاملو الإيمان، وقالت المعتزلة بالمنزلة بين المنزلتين في الدنيا، مع التَّخليد في النار في الآخرة.

وهدىٰ الله ـ تعالى ـ أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحقّ بإذنه، فقالوا عن أولئك العُصاة: إنهم مؤمنون، ناقصو الإيمان، أو مؤمنون بإيمانهم، فاسقون بمعاصيهم، وأنهم تحت مشيئة الله في الآخرة، إنْ

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (٧/ ٤٧٩) (٣/ ١٨٢).

شاء عذّبهم بعدله، وإن شاء غفر لهم برحمته.

كما أنَّ الفسق من الوعيد الذي يترتَّب عليه نتائج وتبعات، كما قال ابن تيمية: «اعلم أن مسائل التكفير والتفسيق هي من مسائل «الأسماء والأحكام». التي يتعلّق بها الوعد والوعيد في الدَّار الآخرة، وتتعلّق بها الموالاة والمعاداة..»(١).

إضافة إلى ذلك فقد حذّر النبي ﷺ من الحكم بالفسق على شخص ما دون بينة، وإقامة للحجّة.

* فعن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ أنه سمع النبي ﷺ يقول: «لا يرمي رجلٌ رجلاً بالفسوق، ولا يرميه بالكفر، إلا ارتدّت عليه، إن لم يكن صاحبه كذلك»(٢).

* يقول الحافظ ابن حجر في شرح هذا الحديث: قوله: «إلا ارتدت عليه». يعني: رجعت عليه، وهذا يقتضي أن من قال لآخر: أنت فاسق، فإن كان ليس كما قال، كان هو المستحق للوصف المذكور، وأنه إذا كان كما قال لم يرجع عليه شيء، لكونه صدق فيما قال، ولكن لا يلزم من كونه لا يصير بذلك فاسقًا، أن لا يكون آثمًا في صورة قوله له: أنت فاسق، بل في هذه الصورة تفصيل: إن قصد نصحه، أو نصح غيره ببيان

---

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٦٨).
(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأدب ح(٦٠٤٥)، ولمسلم نحوه، كتاب الإيمان ح(٦١).

حاله جاز، وإن قصد تعييره بذلك ومحض أذاه لم يجز؛ لأنه مأمور بالستر عليه، وتعليمه وعظته بالحسنىٰ، فمهما أمكنه ذلك بالرّفق لا يجوز له أن يفعله بالعنف؛ لأنه قد يكون سببًا لإغرائه وإصراره على ذلك الفعل، كما في طبع كثير من الناس من الأنفة، لا سيما إذا كان الآمر دون المأمور في المنزلة»[١].

* يقول ابن تيمية: «إني من أعظم الناس نهيًا عن أن يُنسب معين إلى تكفير، وتفسيق، ومعصية، إلا إذا عُلم أنه قد قامت عليه الحجّة الرساليّة التي من خالفها كان كافرًا تارة، وفاسقًا أُخرىٰ، وعاصيًا أخرىٰ»[٢].

ومما يؤكّد أهمية دراسة هذا الموضع، أن الفسق اسم عام يشمل الكفر والكبائر وبقية المعاصي، كما سيأتي بيانه ـ إن شاء الله تعالى ـ ولذا يتعيّن العلم بحد الفسق وإطلاقاته، ولعلّ في الصفحات التالية ما يُحقّق شيئًا من ذلك. والله حسبنا ونعم الوكيل.

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٤٦٦) باختصار.

(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ٢٢٩)، وانظر: الروض الباسم لابن الوزير (٢/ ١١٢).

معنى الفسق

الفسق لغة: الخروج عن الشيء أو القصد، وهو الخروج عن الطاعة.

والفسق: الفجور، والعرب تقول: إذا خرجت الرطبة من قشرها: قد فسقت الرطبة من قشرها.

وفسق فلان في الدنيا فسقًا: إذا اتسع فيها، وهوّن على نفسه، واتسع بركونها لها، لم يضيّقها عليه.

ورجل فاسق، وفسيق وفُسَق: دائم الفِسْق.

والفويسقة الفأرة. تصغر فاسقة، لخروجها من جحرها على الناس وإفسادها، والتفسيق ضدّ التّعديل[١].

وأما المقصود بالفسق اصطلاحًا: فقد تنوّعت عبارات العلماء في ذلك، فنذكر منها ما يلي:

* **يقول ابن عطية:** «الفسق في عرف الاستعمال الشرعي: الخروج من طاعة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فقد يقع على من خرج بكفر، وعلى من خرج بعصيان»[٢].

---

(١) انظر: اللسان (١٠/٣٠٨)، ومعجم مقاييس اللغة (٢/٥٠٢)، والمصباح المنير للفيومي ص(٥٦٨)، وترتيب القاموس المحيط للزاوي (٤/٥٠٢)، ومفردات الراغب ص(٥٧٢).

(٢) تفسير ابن عطية (١/١٥٥).

* وكذا قال القرطبي[١].

* وقال الشوكاني: عن هذا التعريف: «وهذا هو أنسب بالمعنىٰ اللغوي، ولا وجه لقصره على بعض الخارجين دون بعض»[٢].

* وقال البيضاوي: «الفاسق الخارج عن أمر الله بارتكاب الكبيرة»[٣].

* وقال الألوسي: «الفسق شرعًا: خروج العقلاء عن الطّاعة، فيشمل الكفر ودونه من الكبيرة والصغيرة، واختص في العرف والاستعمال بارتكاب الكبيرة، فلا يطلق على ارتكاب الآخريْن إلا نادرًا بقرينة»[٤].

من خلال التّعريفات السّابقة: ندرك عموم مصطلح الفسق، فهو ـ في الأصل ـ أعمّ من الكفر[٥]، حيث يشمل الكفر وما دونه من المعاصي، ولكن خصّه العرف بمرتكب الكبيرة، ولذا يقول الراغب الأصفهاني: «والفسق يقع بالقليل من الذنوب والكثير، ولكن تعورف فيما كان كثيرًا»[٦].

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١/ ٢٤٥).
(٢) فتح القدير (١/ ٥٧).
(٣) تفسير البيضاوي (١/ ٤١)، وانظر: تفسير أبي السعود (١/ ١٣١).
(٤) تفسير الألوسي (١/ ٢١٠).
(٥) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٦٣)، ومفردات الراغب ص(٥٧٢)، ونزهة الأعين النواظر لابن الجوزي (٢/ ٧٢)، والكليّات للكفوي ص(٦٩٣).
(٦) المفردات ص(٥٧٢).

أقسام الفسق وإطلاقاته

الفسق له عدة أقسام باعتبارات مختلفة:

فهو ينقسم إلى فسق يُخرج عن الإسلام، وفسق لا يُخرج عن الإسلام.

* **قال ابن عباس - رضي الله عنهما -:** «كل شيء نسبه الله إلى غير أهل الإسلام من اسم مثل خاسر، ومسرف، وظالم، وفاسق، فإنما يعني به الكفر، وما نسبه إلى أهل الإسلام فإنما يعني به الذّنب»[١].

«وقد روي عن ابن عباس وطاووس وعطاء وغير واحد من أهل العلم، قالوا: كفر دون كفر، وفسوق دون فسوق»[٢].

* **وقال محمد بن نصر المروزي - رحمه الله -:** «والفسق فسقان: فسق ينقل عن الملّة، وفسق لا ينقل عن الملّة، فيُسمى الكافر فاسقًا، والفاسق من المسلمين فاسقًا»[٣].

* **وها هنا أمر مهمّ لابد من التنويه به، وهو أن الإيمان لما كان شعبًا**

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير (١/ ١٤٢)، والدر المنثور للسيوطي (١/ ١٠٥).
(٢) أخرجه الترمذي في السنن، كتاب الإيمان.
(٣) تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٥٢٦).

متعدّدة كما أخبر الصّادق المصدوق ﷺ في حديث شعب الإيمان[١]، فإن ما يقابله ويضاده كذلك، فالكفر شعب ومراتب، فمنه ما يُخرج من الملّة، ومنه كفر دون كفر، وكذا النفاق، والشرك، والفسق، والظلم، وهذا أصل عظيم تميّز به أهل السنة عن المبتدعة من الوعيدية والمرجئة[٢].

* **وفسق الكفر قد يكون اعتقاديًا، وقد يكون عمليًا.**

ومثال الاعتقادي: فسق المنافقين زمن النبي ﷺ.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٥٣].

فقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٥٣].

تعليل لعدم قبول نفقاتهم[٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧].

* قال الشوكاني: «وهذا التركيب يُفيد أنهم هم الكاملون في

---

(١) وهو قوله ﷺ: الإيمان بضع وستون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق..» أخرجه البخاري، كتاب الإيمان ح(٩). ومسلم، كتاب الإيمان، ح (٣٥).

(٢) انظر: كتاب الصلاة لابن القيّم ص(٥٣ ـ ٥٨).

(٣) انظر: فتح القدير للشوكاني (٢/ ٣٦٩).

الفسق»(١).

ومثال الفسق العملي المخرج عن الملة: فسق إبليس، حيث قال الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٠].

ففسق إبليس إنما كان بتركه للسجود، وامتناعه عن اتباع أمر ربه ـ عزَّ وجلَّ ـ وهذا التّرك يعدّ فعلاً وعملاً ـ كما هو مقرّر في كتب الأصول ـ (٢).

وفسق الكفر هو المذكور في غالب آيات القرآن الكريم، وكما قال ابن الوزير: «قد ورد في السّمع ما يدلّ على أن الفاسق في زمان النبي ﷺ يُطلق على الكافر كثيرًا، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٦٧]. وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [البقرة: ٩٩].

وقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

---

(١) فتح القدير (٢/ ٣٧٩).

(٢) انظر: روضة الناظر لابن قدامة ص(٥٤)، وإرشاد الفحول للشوكاني ص(٥٢)، والقواعد الأصولية لابن اللحام ص(٦٢)، ويقول الشوكاني في تفسيره (٢/ ١٥٨): «وإطلاق اسم الفسق على تارك ما فرضه الله عليه غير ممتنع شرعًا».

[السجدة: ٢٠]، وذكر آيات كثيرة ثم قال:

فهذه الآيات دالة على أن الفاسق في العرف الأول يُطلق على الكافر، ويسبق إلى الفهم»(١).

* وسنورد إضافة إلى ما سبق بعض الأدلة كأمثلة على فسق الكفر.

قال الله تعالى عن قوم نوح: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الذاريات: ٤٦].

وقال تعالى عن فرعون وقومه: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [النمل: ١٢].

وقال عزَّ وجلَّ عن اليهود على لسان موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥، ٢٦].

وقال سبحانه عن النصارى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٧].

وجاء في حديث لابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا تفسيرًا لهذه

---

(١) العواصم والقواصم (٢/ ١٦٠، ١٦١) باختصار، وانظر إيثار الحق على الخلق لابن الوزير ص(٤٥١)، وتفسير المنار لمحمد رشيد رضا (١/ ٢٣٨).

الآية: «فالمؤمنون الذين آمنوا بي، وصدّقوا بي، والفاسقون الذين كذّبوا بي وجحدوا بي»[١].

وسمّى الله تعالى المشركين فسّاقًا، فقال سبحانه: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨].

وجاء النصّ القرآني بتسمية بعض أفراد الشّرك فسقًا، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١].

فقد حمل الشافعي ـ رحمه الله ـ ذلك على ما ذبح لغير الله[٢].

وقال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ [المائدة: ٣].

* يقول الشوكاني: «قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ إشارة إلى الاستقسام بالأزلام أو إلى جميع المحرّمات المذكورة هنا.

والفسق: الخروج عن الحدّ، وفي هذا وعيد شديد؛ لأن الفسق هو أشدّ الكفر لا ما وقع عليه اصطلاح قوم من أنه منزلة متوسطة بين الإيمان والكفر»[٣].

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة ح(٧١)، والطبراني في الكبير (١٠٣٥٧)، وقواه ابن كثير في تفسيره (٤/ ٣٣٨).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ١٦١).

(٣) فتح القدير (٢/ ١٠).

وإذا انتقلنا إلى الفسق الذي لا يخرج من الملة، فيمكن تقسيمه إلى فسق الاعتقاد، وفسق العمل.

* ومثال فسق الاعتقاد ها هنا ـ ما قاله ابن القيم ـ: «فسق أهل البدع الذين يؤمنون بالله ورسوله واليوم الآخر، ويُحرّمون ما حرَّم الله، ويُوجبون ما أوجب الله، ولكن ينفون كثيرًا مما أثبت الله ورسوله، جهلاً وتأويلاً، وتقليدًا للشيوخ، ويثبتون ما لم يثبته الله ورسوله كذلك.

* وهؤلاء كالخوارج المارقة، وكثير من الروافض، والقدرية، والمعتزلة وكثير من الجهمية الذين ليسوا غُلاة في التجهم.

* وأما غُلاة الجهمية فكغلاة الرافضة، ليس للطائفتين في الإسلام نصيب»[١].

* فالفسق أعمّ من البدعة، حيث يُطلق الفسق على البدعة وغيرها، ولذا قال ابن الصلاح: «كل مبتدع فاسق، وليس كل فاسق مبتدعًا»[٢].

* ويدل على ذلك ما ورد عن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ من تسمية الخوارج فاسقين[٣].

* وكذا كان شعبة بن الحجاج رحمه الله يسميهم الفاسقين[٤] لأن

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٦٢).
(٢) فتاوى ابن الصلاح ص(٢٨) ضمن مجموعة الرسائل المنبرية ج (٤).
(٣) أخرجه البخاري، كتاب التفسير ح(٤٧٢٨).
(٤) انظر: الاعتصام للشاطبي، (١/ ٨٤) تحقيق: سليم الهلالي.

الخوارج خرجوا عن طريق الحق، ومرقوا من الدين بشهادة رسول الله ﷺ، كما خرجوا على خيار المسلمين.

* وأما فسق العمل فأمثلته كثيرة، وإطلاقاته متعدّدة... كما جاء ذلك في النصوص الشرعية، وآثار أهل العلم، ولعلّ ما يضبط ذلك ما قاله النووي ـ رحمه الله ـ:

«وأما الفسق فيحصل بارتكاب الكبيرة، أو الإصرار على الصغيرة»(١).

فأما ضابط الكبيرة فقد اختلف في ذلك العلماء اختلافًا كثيرًا(٢).

ولعلّ أصحّ الأقوال في هذه المسألة أن الكبيرة: هي ما فيها حدّ في الدنيا، أو وعيد خاصّ في الآخرة، كالوعيد بالنار، والغضب، واللعنة، وأن الصغيرة ما ليس لها حد في الدنيا ولا وعيد في الآخرة.

وهذا المأثور عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وابن عيينة، وأحمد ابن حنبل، وأبي عبيد القاسم بن سلاّم(٣).

---

(١) فتاوى النووي ص(٢٦١).

(٢) انظر: صحيح مسلم بالنووي (٢/ ٨٤ ـ ٨٧)، ومجموع فتاوى ابن تيمية (١١/ ٦٥٠ ـ ٦٦٠)، وشرح الطحاوية (٢/ ٥٢٥ ـ ٥٢٧)، ومدارج السالكين (١/ ٣٢٠ ـ ٣٢٧)، والجواب الكافي ص(١٦٨ ـ ١٧١)، وشرح رسالة الصغائر والكبائر لابن نجيم، وفتح الباري (١٠/ ٤٠٩ ـ ٤١٢)، والزواجر للهيتمي (١/ ٥ ـ ١٠).

(٣) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية (١١/ ٦٥٠)، وشرح الطحاوية (٢/ ٥٢٦) وأضواء البيان للشنقيطي (٧/ ١٩٩).

* وقال ابن الصلاح: «الكبيرة كل ذنب كبر وعظم عظمًا يصح معه أن يُطلق عليه اسم الكبيرة، ووصف بكونه عظيمًا على الإطلاق، فهذا فاصل لها عن الصغيرة التي وإن كانت كبيرة بالإضافة إلى ما دونها فليست كبيرة يطلق عليها الوصف بالكبر والعظم إطلاقًا، ثم إن لكبر الكبيرة وعظمها أمارات معرّفة بها، منها إيجاب الحد، ومنها الإيعاد عليها بالعذاب بالنار ونحوها في الكتاب والسنة، ومنها وصف فاعلها بالفسق نصًّا، ومنها اللعن كما في قوله ﷺ: «لعن الله من غيّر منار الأرض»[١]. في أشباه لذلك لا نحصيها»[٢].

* وقال العز بن عبد السلام: «إذا أردت معرفة الفرق بين الصغائر والكبائر فاعرض مفسدة الذنب على مفاسد الكبائر المنصوص عليها، فإذا نقصت عن أقلّ مفاسد الكبائر فهي من الصغائر، وإن ساوت أدنىٰ مفاسد الكبائر وأربت عليها فهي من الكبائر»[٣].

* ويقول في موضع آخر: «والأولى أن تضبط الكبيرة بما يشعر بتهاون مرتكبها في دينه إشعار أصغر الكبائر المنصوص عليها بذلك»[٤].

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الأضاحي، ح(١٩٧٨).
(٢) فتاوى ابن الصلاح ص(٨) ضمن مجموعة الرسائل المنبرية ج(٤).
(٣) قواعد الأحكام (١/ ١٩).
(٤) قواعد الأحكام (١/ ٢٢).

* قال ابن حجر: «هو ضابط جيّد»[(١)].

وإذا تقرّر ضابط الكبيرة، فهاهنا أمر ينبغي التفطّن له، وهو أن الكبيرة قد يقترن بها ـ من الحياء، والخوف، والاستعظام لها ـ ما يلحقها بالصغائر، وقد يقترن بالصغيرة من قلة الحياء وعدم المبالاة وترك الخوف والاستهانة بها ما يلحقها بالكبائر، بل يجعلها في أعلى رتبها.

وهذا أمر مرجعه إلى ما يقوم بالقلب، وهو قدر زائد على مجرد الفعل...»[(٢)].

وأما ضابط الإصرار على الصغيرة، فكما قال العزّ بن عبد السلام: «إذ تكرّرت منه الصغيرة تكررًا يشعر بقلة مبالات بدينه إشعار ارتكاب الكبيرة بذلك، وكذلك إذا اجتمعت صغائر مختلفة الأنواع بحيث يشعر مجموعها بما يشعر أصغر الكبائر»[(٣)].

ومن خلال استقراء جملة من النصوص والآثار، فإننا نسوق طرفًا من الإطلاقات على هذا الفسق العملي، كما يلي: **فيسمى القاذف فاسقًا**، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٤].

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٤١١).
(٢) مدارج السالكين (١/ ٣٢٨).
(٣) قواعد الأحكام (١/ ٢٢، ٢٣).

ويُطلق على الكاذب فاسقًا[١]، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

* ويقول اللالكائي: عن حديث رسول الله ﷺ: «سباب المسلم فسوق»[٢]: إن المسلم إذا سبّ المسلم وقذفه فقد كذب، والكذاب فاسق، فيزول عنه اسم الإيمان[٣].

* وتسمىٰ محظورات الإحرام فسوقًا، حيث يقول تعالى: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ﴾ [البقرة: ١٩٧]. فالفسوق هاهنا محظورات الإحرام كما اختاره ابن جرير وغيره[٤].

* ويعدّ التنابز بالألقاب فسوقًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾ [الحجرات: ١١].

* وكما في الحديث السابق حيث قال ﷺ: «سباب المسلم فسوق».

---

(١) انظر: نزهة الأعين النواظر لابن الجوزي (٢/ ٧٢).
(٢) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان (٤٨)، ومسلم، كتاب الإيمان، ح(١١٦).
(٣) أصول اللالكائي (٦/ ١٠٢٣).
(٤) انظر تفسير ابن جرير (٢/ ١٥٢)، وتفسير ابن كثير (١/ ٢٢٥).

وسمَّى النبي ﷺ كافر النعمة فاسقًا، كما جاء في قوله ﷺ: «إن الفسّاق هم أهل النار». قيل: يا رسول الله! ومَن الفسّاق؟ قال: «النساء» قال رجل: يا رسول الله أولسن أمهاتنا وأخواتنا وأزواجنا؟ قال: «بلى ولكنهن إذا أعطين لم يشكرن، وإذا ابتلين لم يصبرن»[(١)].

فيجوز أن يسمى الفاسق كافر نعمة، حيث أطلقته الشريعة[(٢)].

* ويسمى السارق فاسقًا، حيث سئل حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ فقيل له: ما بال هؤلاء الذين يبقرون[(٣)] بيوتنا، ويسرقون أعلاقنا[(٤)]؟ قال حذيفة: «أولئك الفساق»[(٥)].

* ويعدّ صاحب النفاق الأصغر فاسقًا[(٦)].

* يقول ابن تيمية: «يسمى الفاسق منافقًا النفاق الأصغر، لا النفاق الأكبر، والنفاق يُطلق على النفاق الأكبر الذي هو إضمار الكفر، وعلى

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٢٨، ٤٤٤)، وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ٧٣): «ورجاله ثقات»، وصححه الألباني في «الصحيحة» ح(٢٦٠).
(٢) كتاب الإيمان لابن تيمية ص(٢٣٥).
(٣) يبقرون: ينقبون.
(٤) أعلاقنا: نفائس أموالنا.
(٥) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، ح(٤٦٥٨).
(٦) رد ابن حزم في الفصل (٣/ ٢٨٧، ٢٨) على من سمى صاحب الكبيرة منافقًا، وكذا القاضي أبو يعلى نفى ذلك في كتابه: «مسائل الإيمان» ص(٣٥٥ ـ ٣٦٤) وانظر: اللالكائي (٦/ ١٠٢٥).

النفاق الأصغر، الذي هو اختلاف السر والعلانية في الواجبات»[١].

* ويقول - أيضًا -: «وإن أظهر أنه صادق، أو موف، أو أمين، وأبطن الكذب والغدر والخيانة ونحو ذلك، فهذا هو النفاق الأصغر الذي يكون صاحبه فاسقًا»[٢].

ويدل على ذلك جملة من الآثار، منها: «أن هرم بن حيان قال: إياكم والعالم الفاسق، فبلغ عمر بن الخطاب، فكتب إليه وأشفق منها! ما العالم الفاسق؟ قال: فكتب إليه هرم: يا أمير المؤمنين! والله ما أردت به إلا الخير، يكون إمام يتكلم بالعلم، ويعمل بالفسق، فيشبه على الناس فيضلون»[٣].

وسمّى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - هذا الفاسق منافقًا، فقال: «إن أخوف ما أخاف عليكم المنافق العليم؟ قالوا: وكيف يكون المنافق عليمًا، قال: يتكلّم بالحكمة، ويعمل بالجور، أو قال المنكر»[٤].

وسئل حذيفة بن اليمان: مَنِ المنافق؟ قال: الذي يصف الإسلام ولا

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ١٤٠)، يقول الحسن البصري - رحمه الله -: «من النفاق اختلاف اللسان والقلب واختلاف السر والعلانية». أخرجه الفريابي في صفة المنافق ص (٦١).

(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ١٤٣)، وانظر: مجموع الفتاوى (٧/ ٥٢٤).

(٣) أخرجه الدارمي في سننه (١/ ٩٠).

(٤) أخرجه محمد بن نصر في تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٦٣٣).

يعمل به(١).

* وسمىٰ النبي ﷺ الرويبضة فويسقًا، فقال عليه الصلاة والسلام: «إن أمام الدّجال سنين خداعة، يكذَّب فيها الصادق، ويُصدَّق فيها الكاذب، ويُخوَّن فيها الأمين، ويُؤْتَمَنُ فيها الخائن، ويتكلَّم فيها الرويبضة، قيل: وما الرويبضة؟» قال: «الفويسق يتكلم في أمر العامة»(٢).

والرويبضة تصغير الرابضة وهو العاجز الذي ربض عن معالي الأمور، وقعد عن طلبها(٣).

وفي الجملة، فقد يقال: إن هذه المعاصي التي سمّيت فسقًا عمليًا أعظم ممن دونها من معاصي لم تسم فسقًا، وكما قال البيضاوي: «والفسق إذا استعمل في نوع من المعاصي دلَّ على عظمته كأنه متجاوز عن حده»(٤).

* **وقال الألوسي: الفاسق: «المتمرّد المكثر من معصية ما»(٥).**

---

(١) أخرجه الفريابي في صفة المنافق ص(٦٦، ٦٧)، ومحمد بن نصر في تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٦٣١)، وابن بطة في الإبانة الكبرىٰ (٢/ ٦٩١، ٦٩٦).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٢٢٠)، وقال ابن كثير في النهاية (١/ ٥٧) عن هذا الحديث «وهذا إسناد جيد تفرّد به أحمد من هذا الوجه».

(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث (٢/ ١٨٥).

(٤) تفسير البيضاوي (١/ ٧٢).

(٥) روح المعاني (١/ ٣٣٥).

* وإضافة إلى ما سبق، فإن فسق العمل نوعان ـ باعتبار آخر ـ كما بيّنه ابن القيّم بقوله: «فسق العمل نوعان: مقرون بالعصيان، ومفرد.

فالمقرون بالعصيان: هو ارتكاب ما نهىٰ الله عنه، والعصيان: هو عصيان أمره، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧].

وكما قال تعالى: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ﴾ [التحريم: ٦].

وقال موسىٰ لأخيه هارون ـ عليهما السلام ـ: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ۝٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي﴾ [طه: ٩٢، ٩٣].

فالفسق أخصّ بارتكاب النهي، ولهذا يطلق عليه كثيرًا، كقوله تعالى: ﴿وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. والمعصية أخصّ بمخالفة الأمر، ويطلق كل منهما على صاحبه، كقوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾ [الكهف: ٥٠].

فسمى مخالفته للأمر فسقًا، وقال: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]، فسمى ارتكابه للنهي معصية، فهذا عند الإفراد، فإذا اقترنا كان أحدهما لمخالفة الأمر، والآخر لمخالفة النهي»(١).

وفي ختام هذه الوريقات ننبه إلى ضرورة عدم الخلط بين مفهوم الفسق عند أهل السنة، ومخالفيهم.

---

(١) مدارج السالكين (١/٣٦١، ٣٦٢) بتصرف.

فمرتكب الكبيرة عند أهل السنة مع أنه فاسق بكبيرته، إلا أنه لا يخرج من الإيمان بالكلية، فيمكن اجتماع الإيمان مع هذا الفسق الأصغر- كما هو مقرر عند أهل السنة، ومن ثم فهو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته(١)، وأمره إلى الله تعالى، إن شاء غفر له برحمته، وإن شاء عذّبه بعدله، ومآله إلى الجنة فيما بعد؛ فأهل السنة متفقون على أن فساق أهل الملة - وإن دخلوا النار أو استحقّوا دخولها- فإنهم لابدّ أن يدخلوا الجنة(٢).

* يقول ابن تيمية: مقررًا هذه المسألة: «ومن أصول أهل السنة والجماعة أن الدين والإيمان قول وعمل، قول القلب واللسان، وعمل القلب والجوارح، وأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وهم مع ذلك لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر كما يفعله الخوارج، بل الأخوة الإيمانية ثابتة مع المعاصي، كما قال سبحانه: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ١٧٨].

وقال سبحانه: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟

---

(١) هذا بالنسبة للحكم العام المطلق، فنطلق القول بنصوص الوعيد والتكفير والتفسيق، ولا نحكم للمعين بدخوله في ذلك العام حتى يقوم فيه المقتضي الذي لا معارض له. انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية (١٠/ ٣٣٠)، (٤/ ٤٨٤)، (٢٨/ ٤٩٩).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (٤/ ٤٨٦).

بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ٩، ١٠].

ولا يسلبون الفاسق الملّي الإسلام بالكلية، ولا يخلدونه في النار، كما تقول المعتزلة، بل الفاسق يدخل في اسم الإيمان المطلق كما في قوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢]. وقد لا يدخل في اسم الإيمان المطلق كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢].

وقوله ﷺ: «لا يزني الزّاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن»[١].

ونقول: هو مؤمن ناقص الإيمان، أو مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته، فلا يعطى الإسلام المطلق، ولا يسلب مطلق الاسم»[٢].

فارتكاب الكبير يعدّ فسقًا ينافي كمال الإيمان الواجب، وهذا الفسق يمكن اجتماعه مع الإيمان، وصاحبه متعرّض للوعيد، فأهل السنة يقولون بجواز التبعض في الاسم والحكم، بمعنىٰ أن يكون مع

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المظالم ح(٢٤٧٥) ومسلم، كتاب الإيمان، ح(٧٦).
(٢) العقيدة الواسطية بشرح محمد خليل هراس ص(١٥٢ ـ ١٥٦).

الرجل بعض الإيمان لا كله، ويثبت له من حكم أهل الإيمان وثوابهم بحسب ما معه، كما يثبت له من العقاب بحسب ما عليه[١].

وإذا تقرّر مفهوم الفسق عند أهل السنة، فإننا نورد مفهومه عند المخالفين.

فأما الأشاعرة فنجد فيهم من يجعل الفاسق الملي مؤمنًا بإطلاق، ويعتبرونه مؤمنًا حقًّا.

* **كما قال أحدهم ـ وهو الآمدي ـ:** «فعلى هذا مهما كان مصدقًا بالجنان وإن أخلّ بشيء من الأركان، فهو مؤمن حقًّا، وانتفاء الكفر عنه واجب، وإن صح تسميته فاسقًا بالنسبة إلى ما أخلّ به من الطاعات، وارتكب من المنهيّات»[٢].

وسمى الإيجي مرتكب الكبيرة مؤمناً بإطلاق[٣].

وقد سبق أن ذكرنا أن مرتكب الكبيرة ـ عند أهل السنة ـ لا يعطى الإيمان المطلق.. فلا يقال عن الزاني أو شارب الخمر ـ مثلاً ـ إنه مؤمن بإطلاق، ولكن نقيّده، فنقول: مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، أو مؤمن ناقص الإيمان.

---

(١) انظر: شرح الأصفهانية ت: مخلوف ص(١٤٤).
(٢) غاية المرام في علم الكلام ص(٣١٢).
(٣) انظر: المواقف في علمِ الكلام ص(٣٨٩).

* وقد عاب إبراهيم النخعي ـ رحمه الله ـ تلك المقولة، فقال: «ما أعلم قومًا أحمق في رأيهم من هذه المرجئة؛ لأنهم يقولون: مؤمن ضالّ، ومؤمن فاسق»[١].

وعلى كلٍّ فإن مقالة أولئك الأشاعرة متفرعة عن قول جمهورهم بأن الإيمان هو التصديق، حيث أخرجوا الأعمال عن مسمَّى الإيمان.

أما المعتزلة فمفهوم الفسق عندهم على عكس المقالة السابقة، فالفاسق عندهم ليس مؤمنًا، كما أنه ليس كافرًا، بل هو في منزلة بين المنزلتين، ولم يقل أحد من المعتزلة بإيمان مرتكب الكبيرة سوىٰ الأصم[٢].

* يقول عبد الجبار الهمداني المعتزلي:

«صاحب الكبيرة له اسم بين الاسمين، وحكم بين الحكمين، لا يكون اسمه اسم الكافر، ولا اسمه اسم المؤمن، وإنما يسمى فاسقًا، وكذلك فلا يكون حكمه حكم الكافر، ولا حكم المؤمن، بل يفرد له حكم ثالث، وهو المنزلة بين المنزلتين»[٣]. ولما كان مرتكب الكبيرة ـ عندهم ـ فاسقًا غير مؤمن، لذا حكموا عليه بالخلود في النار.

---

(١) السنة للإمام عبد الله بن الإمام أحمد حنبل (١/ ٣٤١).
(٢) انظر: مقالات الإسلاميين (١/ ٣٣٣).
(٣) شرح الأصول الخمسة ص(٦٩٧).

* كما قال عبد الجبار المعتزلي: «والذي يدل على أن الفاسق يُخلّد في النار، ويُعذّب فيها أبدًا ما ذكرناه من عمومات الوعيد، فإنها كما تدل على أن الفاسق يفعل به ما يستحقه من العقوبة، تدل على أنه يُخلّد»[١].

وقد تبع الزيديةُ المعتزلة في مفهوم الفسق، ووافقوهم على ما سبق ذكره[٢].

هذا ما تيسر جمعه في هذا الموضع، وبالله تعالى التوفيق وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) شرح الأصول الخمسة ص(٦٦٦).
(٢) انظر: مثلاً العقد الثمين في معرفة رب العالمين للحسين بن بدر الدين ص(٥٧)، ومصباح العلوم في معرفة الحيّ القيوم للرصاص، ص(٢٠).

الرسالة الثانية

النفاق والمنافقون أخطار وتنبيهات

«إن بلية الإسلام بالمنافقين شديدة جدًّا؛ لأنهم منسوبون إليه، وهم أعداؤه في الحقيقة يخرجون عداوته في كل قالب يظن الجاهل أنه علم وصلاح، وهو غاية الجهل والإفساد.

فلله كم من معقل للإسلام قد هدموه؟ وكم من حصنٍ له قد قلعوا أساسه وخربوه؟ وكم من عَلَم له قد طمسوه؟ وكم لواء له مرفوع قد وضعوه، وكم ضربوا بمعاول الشبه في أصول غراسه ليقلعوها. فلا يزال الإسلام وأهله منهم في محنة وبلية. ولا يزال يطرقه من شببهم سريّة بعد سرية، يزعمون أنهم بذلك مصلحون، ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون».

هذا بعض ما سطّره ابن القيم ـ رحمه الله ـ في التحذير من النفاق والمنافقين[١]، والذي هو موضوع هذه الرسالة، وسيكون الحديث عن خطر النفاق والمنافقين من خلال ما يلي:

١ ـ أن المنافقين أعظم خطرًا وضررًا من الكفار المجاهرين، كما أن

(١) انظر مدارج السالكين (١/ ٣٤٧).

المنافقين أغلظ كفرًا وأشد عذابًا .

قال ابن القيم ـ عنهم ـ: «طبقة الزنادقة، وهم قوم أظهروا الإسلام ومتابعة الرسل، وأبطنوا الكفر ومعاداة الله ورسله، وهؤلاء المنافقون، وهم في الدرك الأسفل من النار، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

فالكفار المجاهرون بكفرهم أخف، وهم فوقهم في دركات النار؛ لأن الطائفتين اشتركتا في الكفر ومعاداة الله ورسله، وزاد المنافقون عليهم بالكذب والنفاق، وبلية المسلمين بهم أعظم من بليتهم بالكفار المجاهرين، ولهذا قال تعالى: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤]، ومثل هذا اللفظ يقتضي الحصر، والمراد إثبات الأولوية والأحقية لهم في هذا الوصف.. لا على معنى أنه لا عدو لكم سواهم، بل على معنى أنهم أحق بأن يكونوا لكم عدوًّا من الكفار المجاهرين، فإن الحرب مع أولئك ساعة أو أيامًا، ثم ينقضي ويعقبه النصر والظفر، وهؤلاء معهم في الديار والمنازل، صباحًا ومساء، يدلون العدو على عوراتهم، ويتربصون بهم الدوائر، ولا يمكنهم مناجزتهم.. وإنما كانت هذه الطبقة في الدرك الأسفل من النار لغلظ كفرهم، فإنهم خالطوا المسلمين وعاشروهم، ووصل إليهم من معرفة الإيمان ما لم يصل إلى

المنابذين بالعداوة، فإذا كفروا مع هذه المعرفة والعلم كانوا أغلظ كفرًا وأخبث قلوبًا، وأشد عداوة لله ولرسوله وللمؤمنين من البعداء عنهم، قال تعالى عن المنافقين: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾[1] [المنافقون: ٣]».

٢ ـ حذَّر القرآن الكريم من النفاق وصفات المنافقين في آيات كثيرة، فكان الحديث عن النفاق والمنافقين في القرآن في سبع عشرة سورة مدنية من ثلاثين سورة، واستغرق ذلك قرابة ثلاثمائة وأربعين آية، حتى قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «كاد القرآن أن يكون كله في شأنهم»[2].

٣ ـ أن النبي ﷺ خاف على أمته من النفاق والمنافقين، وحذّر وأنذر من سلوك المنافقين وشعب النفاق في أحاديث كثيرة.

فعن عمران بن حصين ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعًا: «إن أخوف ما أخاف عليكم بعدي كل منافق عليم اللسان»[3].

---

(١) طريق الهجرتين ص(٤٠٢ ـ ٤٠٤)، باختصار يسير.
(٢) مدارج السالكين (١/ ٣٤٧).
(٣) أخرجه الفريابي في صفة النفاق (٢٣)، والطبراني في الكبير (١٨/ ٢٣٧)، والبيهقي في الشعب (٢/ ١٦١)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٨٧): «رجاله رجال الصحيح» وصححه الألباني في الجامع الصغير.

قال المناوي في التيسير: «كل منافق عليم اللسان: أي عالم للعلم منطلق اللسان به، لكنه جاهل القلب والعمل، فاسد العقيدة، مغر الناس بشقاشقه وتفحصه وتقعره في الكلام»[١].

وقال المناوي أيضًا: «أي كثير علم اللسان، جاهل القلب والعمل، اتخذ العلم حرفة يتأكل بها، وأبهة يتعزز بها، يدعو الناس إلى الله، ويفرّ هو منه»[٢].

٤ ـ كان سلفنا الصالح رحمهم الله مع عمق إيمانهم وكمال علمهم يخافون النفاق أيما خوف، فقد أخرج البخاري تعليقًا أن ابن أبي مليكة ـ رحمه الله ـ قال: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كله يخاف النفاق على نفسه.

قال الحافظ ابن حجر: «وقد أدرك ابن أبي مليكة عائشة وأختها أسماء وأم سلمة والعبادلة الأربعة، وأبا هريرة، وسمع منهم، وأدرك بالسن جماعة أجلّ من هؤلاء كعليّ وسعد بن أبي وقاص، وقد جزم بأنهم كانوا يخافون النفاق في الأعمال ولم ينقل عن غيرهم خلاف ذلك، فكأنه إجماع، وذلك لأن المؤمن قد يعرض عليه في عمله ما

---

(١) التيسير: (١/ ٥٢).
(٢) التيسير: (١/ ٣٠٩).

يشوبه مما يخالف الإخلاص، ولا يلزم من خوفهم من ذلك وقوعه منهم»[١].

وكان أبو الدرداء ـ رضي الله عنه ـ إذا فرغ من التشهد ـ في الصلاة ـ يتعوذ بالله من النفاق، ويكثر التعوذ منه، فقال له أحدهم: ومالك يا أبا الدرداء أنت والنفاق؟ فقال دعنا عنك، فوالله إن الرجل ليقلب عن دينه في الساعة الواحدة فيخلع منه[٢].

وكان الحسن البصري ـ رحمه الله ـ يقول: «ما خافه النفاق إلا مؤمن، ولا أمنه إلا منافق»[٣].

وسئل الإمام أحمد: ما تقول فيمن لا يخاف على نفسه النفاق؟ قال: ومن يأمن على نفسه النفاق[٤].

يقول ابن القيم: «وبحسب إيمان العبد ومعرفته يكون خوفه أن يكون من أهل هذه الطبقة، ولهذا اشتد خوف سادة الأمة وسابقوها على أنفسهم أن يكونوا منهم، فكان عمر يقول لحذيفة: ناشدتك الله، هل

---

(١) الفتح: (١/ ١١١).
(٢) أخرجه الفريابي في صفة المنافق ص(٦٩)، وقال الذهبي في السير (٦/ ٣٨٢): إسناده صحيح.
(٣) أخرجه البخاري تعليقًا وأخرجه الخلال في السنة (٥/ ٦٨).
(٤) انظر جامع العلوم والحكم لابن رجب (٢/ ٤٩٣).

سماني رسول الله مع القوم؟ فيقول: «لا، ولا أزكي بعدك أحدًا»[١]، يعني لا أفتح عليّ هذا الباب في تزكية الناس، وليس معناه أنه لم يبرأ من النفاق غيرك»[٢].

فتأمل رحمك الله ما عليه أولئك الأسلاف الأبرار من خوف شديد من النفاق ودواعيه، ثم انظر إلى حال الأكثرين منا في هذا الزمان، فمع ضعف الإيمان وغلبة الجهل تجد الأمن من النفاق والغفلة عنه فالله المستعان.

٥ ـ ومما يوجب مزيد الخوف من النفاق والحذر من المنافقين أنهم كثيرون، منتشرون في بقاع الأرض.

كما قال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ: «لو لا المنافقون لاستوحشتم في الطرقات»[٣].

وقال ابن القيم: «كاد القرآن أن يكون كله في شأنهم، لكثرتهم على ظهر الأرض، وفي أجواف القبور، فلا خلت بقاع الأرض منهم لئلا

---

(١) كان عمر الفاروق ـ رضي الله عنه ـ يخاف من نفاق العمل لا نفاق الكفر، كما أن عمر يخاف هذا النفاق الأصغر على نفسه في الحال وليس عند الموت فحسب. انظر تفصيل ذلك في جامع العلوم (٢/ ٤٩٢)، وفتح الباري (١/ ٩٠).

(٢) طريق الهجرتين ص(٤٠٩).

(٣) أخرجه ابن بطة في الإبانة الكبرى (٢/ ٦٩٨).

يستوحش المؤمنون في الطرقات، وتتعطل بهم أسبابُ المعايش، وتخطفهم الوحوش والسباع في الفلوات، سمع حذيفة ـ رضي الله عنه ـ رجلاً يقول: اللهم أهلك المنافقين، فقال: يا ابن أخي لو هلك المنافقون لاستوحشتم في طرقاتكم من قلة السالك»[١] ولا يعني ذلك تعميم الحكم بالنفاق على الأكثرية والأغلبية، فإن النفاق شعب وأنواع، كما أن الكفر شعب وأنواع، والمعاصي بريد الكفر، فكذا من كان متهمًا بنفاق فهم على أنواع متعددة، كما وضَّحه شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله: «ولهذا لم يكن المتهمون بالنفاق نوعًا واحدًا، بل فيهم المنافق المحض، وفيهم من فيه إيمان ونفاق، وفيهم من إيمانه غالب وفيه شعبة من النفاق، ولما قوي الإيمان وظهر الإيمان وقوته عام تبوك، صاروا يعاتبون من النفاق على ما لم يكن يعاتبون عليه قبل ذلك»[٢].

٦ ـ أن المنافقين أصحاب تذبذب وتقلب، وأرباب خداع وتلبيس، فيتكلمون بمعسول الكلام، وفصيح الخطاب، ويظهرون للناس في هيئة حسنة، ومظهر جذاب، فربما انخدع بهم الفئام من المسلمين، فمالوا إليهم وأصغوا إلى قولهم وتدليسهم. قال تعالى: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٥٨).
(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٢٣).

[التوبة: ٤٧]، وقال سبحانه: ﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤].

إن هذا التلون والتذبذب يجعل خطرهم كبيرًا، وشرهم مستطيرًا، حيث يخفون كفرهم وضلالهم، ويتظاهرون بالإيمان والاهتداء.

ولذا خفي على كثير من المسلمين حال بعض الزنادقة (المنافقين) في القديم والحديث، وكما قال الذهبي ـ رحمه الله ـ في شأن الحلاج:

«فهو صوفي الزي والظاهر، متستر بالنسب إلى العارفين، وفي الباطن فهو من صوفية الفلاسفة أعداء الرسل، كما كان جماعة في أيام النبي منتسبون إلى صحبته وإلى ملته، وهم في الباطن من مردة المنافقين قد لا يعرفهم النبي ولا يعلم بهم، قال تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠١].

فإذا جاز على سيد البشر أن لا يعلم ببعض المنافقين وهم معه في المدينة سنوات، فبالأولى أن يخفى حال جماعة من المنافقين الفارغين عن دين الإسلام بعده عليه السلام على العلماء من أمته»[١].

٧ ـ ومما يؤكد خطر النفاق أن الكثير من شعب النفاق الأصغر «الذي لا يخرج عن الملة» قد عمت وطمت في مجتمعات المسلمين؛ كالكذب، وخلف الوعد والرياء والخيانة والجبن وترك الجهاد في سبيل

---

(١) السير (١٤/ ٣٤٣).

الله تعالى وعدم تحديث النفس بذلك.

ومع أن هذه الخصال من النفاق الأصغر، لكنها قد تؤول إلى النفاق الأكبر المخرج من الملة، وفي هذا يقول ابن رجب: «والنفاق الأصغر وسيلة وذريعة إلى النفاق الأكبر، كما أن المعاصي بريد الكفر، فكما يُخشى على من أصر على المعصية أن يُسلب الإيمان عند الموت، كذلك يخشى على من أصر على خصال النفاق أن يسلب الإيمان، فيصير منافقًا خالصًا»[١].

بل استفحل الأمر، وعظم النفاق حتى صرنا نشاهد صورًا وأنواعًا من النفاق الأكبر في بلاد المسلمين ومن ذلك الاستهزاء بدين الله تعالى، والفرح والسرور بانخفاض دين الإسلام وهزيمة المسلمين، والإعراض التام عن حكم الله تعالى، ومظاهرة الكفار ضد المسلمين.

إن على الدُّعاة إلى الله أن يحذروا مكايد المنافقين ومسالكهم، فلا ينخدعوا بهم، أو يتساهلوا معهم، وأن يُعنى الدعاة بمعرفة النفاق وخطره وشعبه؛ مخافة أن يصيبهم، وأن يتعرفوا على مكايد المنافقين ومخططاتهم في الماضي والحاضر؛ لكي لا يقعوا في شراكهم، وأن

---

(١) جامع العلوم (٢/ ٤٩٢).

يجتهد المصحلون في تحقيق تزكية النفوس وتربية الأجيال على الإيمان الصحيح، والقيام بالعبادة ظاهرً وباطنًا، فالمنافقون أرباب ظواهر لا بواطن، وسيدرك الصادقون في إيمانهم أولئك المنافقين من خلال لحن القول، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ﴾ [محمد: ٣٠].

قال شيخ الإسلام: «فمعرفة المنافقين ثابتة مقسم عليهم، لكن هذا يكون إذا تكلموا، وأما معرفتهم بالسيما فهو موقوف على مشيئة الله تعالى»[1].

وقال أمير المؤمنين عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ: ما أسرّ أحد سريرة إلا أظهرها الله على وجهه وفلتات لسانه.

ـ وأشير إلى مسألة مهمة وهي أن النفاق موجود وواقع خلافًا لمن أنكره من طوائف المرجئة، فقد زعم صنف من المرجئة أنه ليس في هذا الأمة نفاق[2].

«قيل للحسن البصري: إن قومًا يزعمون أن لا نفاق، ولا يخافون النفاق، فقال الحسن: والله لأن أكون أعلم أني بريء من النفاق أحبّ

---

(١) مجموع الفتاوى (١٧/ ١١٨).
(٢) انظر التنبيه والرد للملطي ص(١٦٤).

إلي من طلاع (ملأ) الأرض ذهبًا»[١].

وقال **سفيان الثوري**: «خلاف ما بيننا وبين المرجئة ثلاث ـ وذكر منها ـ نحن نقول: النفاق، وهم يقولون: لا نفاق»[٢].

وحمل أولئك المرجئة حديث عبد الله بن عمرو **«أربع من كن فيه كان منافقًا. . »** على المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ حيث تلبسوا بهذه الخصال الأربع[٣].

وليس لهم أن يحتجوا بما أخرجه البخاري عن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ حيث قال: «إنما كان النفاق على عهد النبي ﷺ فأما اليوم فإنما هو الكفر بعد الإيمان».

حيث قال **الحافظ ابن حجر** ـ رحمه الله ـ: «والذي يظهر أن حذيفة لم يرد نفي الوقوع، وإنما أراد نفي اتفاق الحكم؛ لأن النفاق إظهار الإيمان وإخفاء الكفر، ووجود ذلك ممكن في كل عصر، وإنما اختلف الحكم؛ لأن النبي ﷺ كان يتألفهم ويقبل ما أظهروه من الإسلام، ولو ظهر منهم احتمال خلافه، وأما بعده، فمن أظهر شيئًا فإنه يؤاخذ به ولا

---

(١) أخرجه الخلال في السنة(٥/ ٧٢)، والفريابي في صفة النفاق (٧٢، ٨٥).
(٢) أخرجه الفريابي في صفة النفاق (٩٣).
(٣) انظر جامع العلوم والحكم لابن رجب (٢/ ٤٨٠).

يترك لمصلحة التألف لعدم الاحتياج إلى ذلك»[١].

وبالإضافة إلى ذلك، فقد نصّ حذيفة على وقوع النفاق بعد عهد النبوة في عدة أقوال، ومن ذلك قوله ـ رضي الله عنه ـ: **«المنافقون الذين فيكم شر من المنافقين الذين كانوا على عهد الرسول ﷺ فقيل له: وكيف ذاك؟ فقال: إن أولئك كانوا يسرون نفاقهم، وإن هؤلاء يعلنون»**[٢].

وجاء رجل من المرجئة لأيوب السختياني، فقال: إنما هو الكفر والإيمان، فقال أيوب: أرأيت قوله: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٦]، أمؤمنون هم أم كفار؟ فسكت الرجل، فقال أيوب: اذهب فاقرأ القرآن، فكل آية في القرآن فيها ذكر النفاق فإني أخافها على نفسي»[٣].

ولعل هذا الأثر يكشف سبب إنكار أولئك المرجئة للنفاق، فهذا المرجئ يقول: إنما هو الكفر والإيمان، ومقصوده أن الإيمان شيء واحد إذا ثبت بعضه ثبت جميعه، وإذا زال بعضه زال جميعه، فلا يجتمع

---

(١) فتح الباري (١٣/ ٧٤).
(٢) أخرجه الفريابي في صفة المنافق (٥٣).
(٣) أخرجه الفريابي في صفة المنافق (٩٢).

عندهم في العبد إيمان وكفر أو نفاق أصغر، ولذا احتج عليه أيوب بالآية الكريمة ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ فهذا صنف جمعوا بين إيمان ومعاصي، وخلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا فأمرهم إلى الله تعالى، فليسوا من أهل الإيمان المطلق التام كما أنهم ليسوا كفارًا بإطلاق.

وقد غلط المرجئة في ذلك، فليس الإيمان شيئًا أو شعبة واحدة، بل إن الإيمان شعب متعددة ـ كما في حديث شعب الإيمان ـ وكذلك الكفر والنفاق شعب متعددة. ويدل على ذلك ما رواه أبو هريرة مرفوعًا: **«ثلاث من كن فيه فهو منافق: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان. فقال رجل: يا رسول الله ذهبت اثنتان وبقيت واحدة؟ قال: فإن عليه شعبة من نفاق ما بقي منهن شيء»**[١].

قال الذهبي: «وفيه دليلٌ على أن النفاق يتبعض ويتشعب، كما أن الإيمان ذو شعب ويزيد وينقص...»[٢].

وقال شيخ الإسلام: «وكل واحد من الإيمان والكفر والنفاق له

---

(١) أخرجه الفريابي في صفة النفاق(٤)، وقال الذهبي في السير (١١/ ٣٦٢): «هذا حديث حسن الإسناد».

(٢) سير أعلام النبلاء (١١/ ٣٦٣).

دعائم وشعب، كما دلت عليه دلائل الكتاب والسنة»[١].

وأمر آخر وهو أن مقالة الكرامية «وهم من طوائف المرجئة» بأن الإيمان قول باللسان قد تكون سببًا في إنكارهم النفاق ونفيه، فالمنافق ـ عندهم ـ مؤمن بالنسبة إلى أحكام الدنيا، مع أن الله تعالى قد نفي الإيمان عن المنافق بقوله سبحانه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨].

كما أن غُلاة المرجئة (الجهمية ومن تبعهم) ينكرون الأعمال القلبية فيخرجونها عن مسمى الإيمان، فالإيمان ـ عندهم ـ معرفة أو تصديق بلا عمل قلبي، وهذا لا يعدّ إيمانًا صحيحًا ولا مقبولاً، فالتصديق بلا نية أو عمل قلبي نفاق[٢]، فجعلوا الإيمان مجرد هذا التصديق، ومن ثم سينكرون النفاق، والله أعلم.

أما عن الموقف والواجب تجاه المنافقين، فيتمثل في جملة أمور منها:

١ ـ النهي عن موالاتهم والركون إليهم، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ

---

(١) انظر مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٣٣).
(٢) انظر مجموع الفتاوى (٧/ ١٧١).

﴿...الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١١٨، ١١٩].

٢ ـ زجرهم ووعظهم: لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣].

٣ ـ عدم المجادلة أو الدفاع عنهم حيث قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (١٠٦) وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥ ـ ١٠٧].

٤ ـ جهادهم والغلظة عليهم: لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣].

٥ ـ تحقيرهم وعدم تسويدهم: فعن بريدة بن الحصيب مرفوعًا «لا تقولوا للمنافق سيّد فإنه إن يك سيدًا فقد أسخطتم ربكم عزّ وجلّ»[1].

(١) أخرجه أبوداود والنسائي.

وكان حذيفة يؤيس (يحتقر) المنافقين[١].

٦ - عدم الصلاة عليهم امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ ﴾ [التوبة: ٨٤].

● **ونذكر في نهاية هذه المقالة جملة من التنبيهات:**

أولاً: علينا أن نفرق بين المداهنة - وهي من خصال المنافقين وشعب النفاق - وبين المداراة، فالمداهنة مجاراة أهل الكفر والفسق في باطلهم، وأما المداراة فهي مداراة أهل الكفر والفسق اتقاء شرهم، أو تأليفًا لقلوبهم.

فالمداهن صاحب تلون وتذبذب، ويلقى كل طائفة بما تهوى، كما في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: **«تجدون شر الناس يوم القيامة عند الله ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه»**[٢].

«قال القرطبي: إنما كان ذو الوجهين شر الناس؛ لأن حاله حال المنافق، إذ هو متعلق بالباطل وبالكذب، مدخل للفساد بين الناس.

وقال النووي: هو الذي يأتي كل طائفة بما يرضيها، فيظهر لها أنه

---

(١) أخرجه الخلال في السنة (٥/ ٧٠).
(٢) أخرجه البخاري ومسلم.

منها ومخالف لضدها، وصنيعه نفاق ومحض كذب»[١].

فالمداهنة محرمة ومذمومة، بخلاف المداراة فقد سلكها رسول الله ﷺ، كما في حديث أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ: عند ما استأذن رجل في الدخول على النبي ﷺ فقال: **«بئس أخو العشيرة»** فلما جلس تَطلّق له النبي في وجهه، وانبسط له، فسألته عائشة فقال: **«يا عائشة متى عهدتيني فاحشًا؟ إن شر الناس عند الله من تركه الناس مخافة فحشه»**[٢].

وقد بيَّن أهل العلم الفرق بين المداراة والمداهنة، ومراد النبي ﷺ في مسلكه تجاه ذلك الرجل...

قال القاضي عياض: «الفرق بين المداراة والمداهنة أن المداراة بذل الدنيا لصلاح الدين، أو الدنيا، أو هما معًا، وهي مباحة وربما استحبت، والمداهنة ترك الدين لصلاح الدنيا، والنبي ﷺ إنما بذل له من دنياه حسن عشرته والرفق في مكالمته، ومع ذلك فلم يمدحه بقول، فلم يناقض قوله فيه فعله، فإن قوله فيه قول حق، وفعله معه حسن عشرة»[٣].

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٤٧٥).
(٢) أخرجه البخاري ومسلم.
(٣) فتح الباري (١٠/ ٤٥٤).

وقال ابن بطال: حيث ذمه كان لقصد التعريف بحاله، وحيث تلقاه بالبشر كان لتأليفه، أو لاتقاء شره، فما قصد بالحالتين إلا نفع المسلمين، ويؤيده أنه لم يصفه في حال لقائه بأنه فاضل ولا صالح»[١].

إذا تقرر ذلك فليتق الله قوم يداهنون أنظمة طاغوتية، وحكامًا مضلين، ثم يسمون صنيعهم مداراة وحكمة وسياسة، فإن العبرة بالحقائق، والله عزَّ وجلَّ مطلع على السرائر وما تخفي الصدور.

ثانيًا: ينبغي أن نفرّق بين النفاق وبين ما يعرض للقلب من الغفلة والتغير بعد الخشوع والإخبات.

يقول ابن رجب: «لما تقرر عند الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أن النفاق هو اختلاف السر والعلانية، خشي بعضهم على نفسه أن يكون إذا تغير عليه حضور قلبه ورقته وخشوعه عند سماع الذكر برجوعه إلى الدنيا والاشتغال بالأهل والأولاد والأموال أن يكون ذلك منه نفاقًا، كما في صحيح مسلم عن حنظلة الأُسَيدي أنه مرّ بأبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ فقال كيف أنت يا حنظلة، قلت نافق حنظلة، قال: سبحان الله ما تقول؟ نكون عند رسول الله يذكّرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله عافسنا (اشتغلنا) الأزواج والأولاد

(١) فتح الباري (١٣/ ١٧١).

والضيعات، فنسينا كثيرًا، فقال أبو بكر: فو الله إنا لنلقى مثل هذا، فانطلقا إلى رسول الله، وأخبره حنظلة بحاله، فقال عليه الصلاة والسلام: والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة»(١).

وقال النووي: «وأصل النفاق إظهار ما يكتم خلافه من الشر، فخاف أن يكون ذلك منافقًا، فأعلمهم النبي أنه ليس بنفاق وأنهم لا يكلفون الدوام على ذلك»(٢).

والمقصود أن أمر النفاق شيء، وأما الغفلة والذهول فهذا شيء آخر، حيث يَرد هذا التغير على القلب، لكنه أمر عارض يصيب القلب ساعة، فيستغفر العبد ربه.وينيب.

ثالثًا: أن نفرِّق بين قبول الحق من كل شخص سواءً كان مؤمنًا أو كافرًا أو منافقًا، وبين موالاة ذلك الشخص ومودته، فالمنافق إذا قال صوابًا، فإنه يقبل هذا الصواب منه، ومع ذلك فله حق العداوة والبغضاء بحسب نفاقه، وفي المقابل فإن العالم الفاضل أو الداعية الصادق وإن

---

(١) جامع العلوم والحِكم (٢/ ٤٩٤).
(٢) صحيح مسلم بالنووي (١٧/ ٦٧).

وقع في زلة أو عثرة فلا يوافق على زلته وعثرته، لكن يبقى له حق الولاء والنصرة حسب إيمانه وتقواه.

كما قال معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ: **«واحذروا زيغة الحكيم، وقد يقول المنافق كلمة الحق، فاقبلوا الحق فإن على الحق نورًا»**(١).

فنسأل الله العظيم أن يعيذنا من النفاق، وأن يختم لنا بالإيمان. وبالله التوفيق.



(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٢٣٢، ٢٣٣).

الفهرس